المدنية الحديثة

فضل المدنية المصرية القديمة فيها

﴿ محاضرة تاريخية القاها في جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بمصر ﴾

حضرة الفاضل شكري افندي صادق

سنة ١٩١٢

obeikandl.com

المدنية الحديثة

(وهل هي مدينة بالاكثر للمدنية المصرية القديمة أم للمدنية اليونانية القديمة)

محاضرة القاها حضرة الفاضل شكري افندي صادق في جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بمصر

وكان كلامه عن الوجه الاول وهو المدنية المصرية

« لا يوجد لبلد ما تاريخ متقلب
كمصر مهد المدنية الحديثة »

يوحنا وليم دريبر

ما الذي استفادته المدنية الحديثة من المدنية المصرية القديمة ؟ سؤال وجهه الي المرحوم المأسوف عليه نخري باشا ناظر المعارف الاسبق في أواخر سنة ١٩٠١ أيام كنت طالباً في السنة الاولى بالقسم التجهيزي .

كنت يومئذ ولداً صغيراً ومعلوماتي في تاريخ أجدادنا القدماء قليلة جداً ولا تزيد عن قولهم تولى فلان ثم توفي وجلس على العرش بعده فلان وهلم جرا . ولذا كان جوابي الخجل والسكوت !!

ولكن بقدر ما أخجلني ذلك السؤال أفادني . أفادني لانه وجه نظري الى ضرورة درس تاريخ تمدن بلادي التي فيها ولدت وفيها نشأت ومن نيلها العذب ارتويت .

أجل ! شرعت منذ ذلك الحين في درس ذلك التاريخ وها أنا الآن أدرس وادوّن في مذكراتي الخصوصية كل ما يساعدني على الجواب على أي سؤال يوجه الي في هذا الموضوع الجليل .

والآن وقد وُجه الي السؤال نفسه ثانياً فاسمحوا لي بان أجيب عليه بخلاصة ما اقتبسته من الكتب والآثار التاريخية وما تلقيته عن علماء الآثار واساتذة التاريخ في العشرة أعوام التي مضت من تاريخ ذلك السؤال .

سادتي. لقد جاء في السؤال كلمة مدنية وأريد أن اشرح أولاً هذه الكلمة.

حاول كثير من علماء الاجتماع وكبار الساسة أن يعرفوا هذه الكلمة تعريفاً صحيحاً فلم يفلحوا لانها على صغرها تتناول أشياء كثيرة جداً لا يمكن حصرها . وممن تصدوا لتعريفها بونالد فقال « انها أحكام القوانين والعادات » وبلمس فقال « انها خلاصة الادب والعقل والرفاهية » وليتريه فقال « انها مجموع الآراء والطبائع الناتجة عن الفنون والصنائع والديانة والفنون الجميلة » وآخرون غيرهم والكل أجمعوا على « انها عبارة عن الخروج عن الوحشية والخشونة الى التهذيب »

ولكن هذه التعاريف كلها ناقصة وانما مع ذلك قريبة من الغرض الحقيقي من الكلمة . ولا تظنوا انني سأعرفها بتعريف أحسن من هذه التعاريف ولذا فاني أتركها ليعرفها كل واحد منكم كما يريد .

وانما مع هذا كله فقد أجمع العلماء على أن أسباب التمدن والحضارة كثيرة أهمها التربية والتعليم والقوانين والشرائع والفنون والصنائع والتجارة والادارة والسياسة... الخ

وقالوا ان الفرق بين أمتين احداهما متوحشة والاخرى متمدنة هو ان هذه متعلمة وتلك غير متعلمة وهذه مهذبة وتلك غير مهذبة ولهذه شرائع وقوانين منتظمة وليس لتلك شرائع ولا قوانين منتظمة وهذه لها فنون وصنائع راقية وليس لتلك فنون ولا صنائع راقية وهلم جرا

وعلى هذا اذا أردنا أن نقارن بين المدنية المصرية القديمة والمدنية الحديثة يجب علينا أن نسرد ظواهر المدنيتين ونعرف وجوه الشبه بينهما وما اذا كان ذلك الشبه طبيعياً أو مكتسباً وما اذا كان للاولى فضل ظاهر على الثانية

صحيح ان المدنيات القديمة كلها اشتركت في تكوين المدنية الحديثة ولكن ظواهر أغلب المدنيات القديمة لا تزال مطمورة في بطن الارض ولم يعرف بالتحقيق غير ظواهر المدنية المصرية القديمة بفضل اجتهاد علماء الآثار المتأخرين أمثال شامپوليون وروسليني وويلكنسن ولبزيوس دمماكر وبريس داڤين وايبرس وماريت وبروكش وماسبيرو وفلندرس پتري وغيرهم ولذا فاذا كان هناك فضل ما فيكون حتماً للمدنية المصرية القديمة النصيب الاوفر منه . وقد أمن على هذا الرأي الصائب دريپر بقوله ضمناً « لا يوجد لبلد ما تاريخ متقلب كمصر مهد المدنية الحديثة » ورُبَّ معترض يقول ان ظواهر المدنية المصرية القديمة دفنت عشرات من القرون ولم تظهر الا منذ قرن واحد فكيف اكتسبت منها المدنية الحديثة والجواب على ذلك بسيط وهو ان سلسلة التاريخ لم تنقطع منذ الخليقة الى يومنا هذا وان كانت الارض حقيقة حجبت آثار المصريين هذه القرون الطويلة فان

الفرس عاصروا المصريين وأخذوا عنهم وعاصرهم اليونانيون وأخذوا عنهم وهكذا حتى أخذنا نحن عمن سبقونا

ومن هذا يستدل ان سلسلة الاخبار لم تنقطع أبداً ولا عجب والحالة هذه ان قام البعض في أي وقت من الاوقات وقالوا ان المدنية الحديثة استفادت من المدنية الفارسية أو اليونانية أو الرومانية أو العربية أو أي مدنية أخرى قديمة من مدنيات العالم . ولو تأمل هؤلاء قليلاً لعرفوا ان جميع المدنيات التي أتت بعد المدنية المصرية القديمة كانت بمثابة مرآة تعكس للعصر الحديث مدنية المصريين القدماء .

ولا يمكنني في مجال كهذا أن اسرد جميع ظواهر التمدن المصري القديم والتمدن الحديث ولذا سأكتفي بسرد بعض ظواهر التمدن المصري القديم المهمة ويمكنكم مقارنتها بمثلها من ظواهر التمدن الحديث وسأختار المواضيع الآتية للكلام عليها وهي : الحكومة . العلوم والمعارف . المعيشة المنزلية . الفنون والصنائع . الشرائع والقوانين . المرأة . خلاف ما يستطرد اليه البحث من المواضيع الفرعية . والآن نبدأ بالكلام على الحكومة .

سادتي . كان العالم قبل ارتقاء الملك منا رأس الفراعنة أي منذ ستة آلاف عام تقريباً عبارة عن قبائل صغيرة متفرقة يدير شؤون كل قبيلة منها شيخ (عمدة) ولكن لما قام هذا الملك الظافر ضم القبائل المذكورة الى بعضها وكوّن المملكة وانشأ حكومة نظامية لا تختلف في شكلها عن حكومات هذا العصر المتمدنة . ولما توفي وقام بالامر بعده ملوك الطبقات الثلاث (أي القديمة والوسطى والحديثة) جعلوا لوظيفة الملك حدوداً وأوجدوا

﴿ تمثال شيخ البلد المشهور ﴾
(بدار التحف المصرية)

وظائف أخرى رئيسية مثل وظائف الوزراء والمديرين ورجال الخزينة والادارة والجيش والبحرية وبالطبع نشأ عن ذلك وجود مالية منظمة وجيش منظم وادارة منظمة وبالجملة حكومة منظمة كالحكومات المتمدنة الحالية .

وأنا واثق تمام الوثوق ان ما نراه الآن من نظامات الحكومات المتمدنة هو صورة طبق الاصل لما كان موجوداً في مصر على عهد الفراعنة .

وكان الملك عندهم وراثيا كما هو الحال عند الامم المتمدنة الآن ولذا كنت ترى الملوك دائماً في ارتباك وذلك من كثرة المشاغبات والمؤامرات التي كان يدبرها ضدهم ذوو المصالح والغايات . ومن أهم تلك المؤامرات مؤامرة حتشبسو (حاتاسو) ضد أخيها تحوتمس ومؤامرة موظفي القصر الملكي ضد رمسيس الثالث .

والناظر يجد أن الملوك المصريين هم اول من أوجد الالقاب الشرفية والاوسمة المقصود منها تشجيع خدام العرش المخلصين ولم يقصروا منحها للرجال بل كانوا يمنحونها للسيدات أيضاً ولذا كان عندهم وسام اسمه وسام المهفة » قريب في درجته من وسام الشفقة عندنا وكانوا يمنحونه للنساء المقربات الى العرش وهم كذلك أول من وضع أساس المعاملة أي العملة وهي وان كانت تختلف في شكلها عن عملة العصر الحديث الا أن الغرض واحد وهو التبادل وكانت الوظائف تعطى للاكفاء فقط فان كان الموظف عالماً اعطى احدى وظائف القضاء أو التعليم أو الاستشارة الخاصة وان كان رياضياً بارعاً أعطي وظيفة حسابية كرئاسة الخزينة الملوكية أو الشون الفرعونية وان كان جنديا باسلاً اسندت اليه وظيفة حربية كرئاسة

فرقة أو ارسالية بحرية وهلم جرا .

وكان لهم اهتمام خاص بالحربية والبحرية وعناية فائقة بانشاء عربات القتال وسفن الغزو المكونة لاسطولهم الظافر وتقسيم الجيوش الى فرق على مثال التقسيم الحديث أي الفرق الراكبة وفرق المشاة وهلم جرا

وكانت الاحكام كلها تصدر باسم الملك والادارة كلها في يد الملك كما هو حاصل الآن في أغلب حكومات الشرق الاستبدادية

هذه هي الحكومة عندهم. أما بخصوص العلوم والمعارف والفنون والصنائع فان المصريين القدماء هم اول من نبغوا فيها. كيف لا وهم أول من رسم لنا خرائط جغرافية وها هي الادراج البردية شاهد عدل على ذلك . وهم أول من دون وكتب في علم التاريخ وها هي الهياكل والاهرام بالنصوص التي على جدرانها شاهد عدل على ذلك . وهم أول من تكلم عن علم الهيئة والفلك وها هي خريطة منطقة فلك البروج شاهد عدل على ذلك . وهم أول من اشتغل بعلم الحساب ووضع قواعده واصوله وها هي كراريس التلاميذ التي عثر عليها علماء الآثار في بعض المقابر شاهد عدل على ذلك . وهم أول من عرف أسرار الطب والتشريح وها هي وصفاتهم الطبية وكتبهم في فن التشريح (الذي تعلموه من التحنيط) لا سيما قرطاس برلين الطبي المشهور شاهد عدل على ذلك . وهم أول من برع في فن العمارات وها هي مبانيهم الشاهقة من مقابر واهرام ومعابد وقصور شاهد عدل على ذلك . وهم أول من برع في فن النحت والنقش بالازميل وها هو تمثال الكاتب بالاوفر وشيخ البلد وخفرع والاميرة نفريت بقصر النيل شاهد عدل على

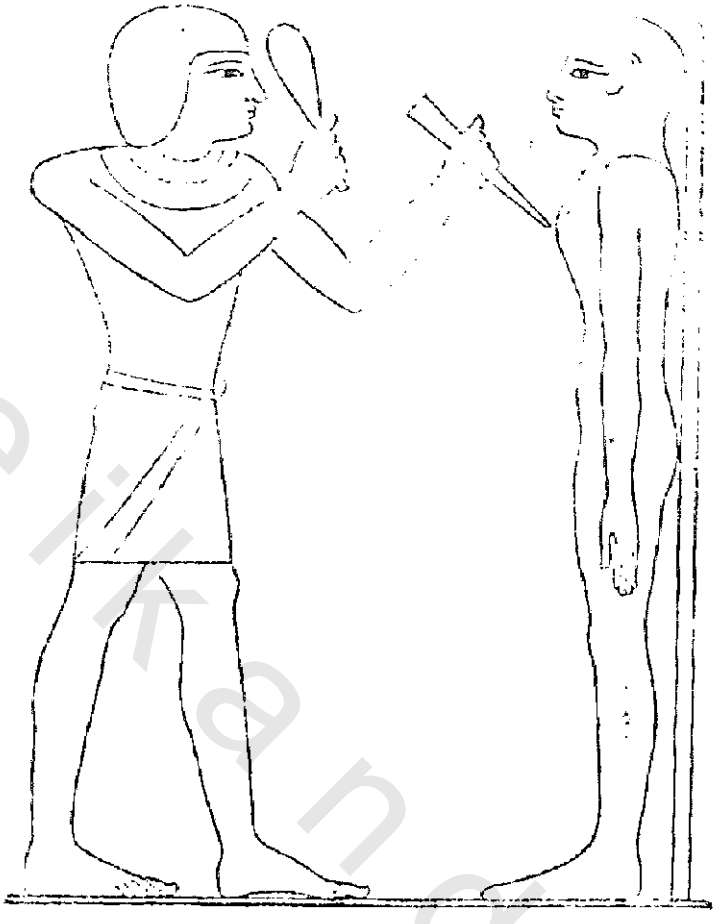

نحات ينحت تمثالاً

ذلك . وهم أول من صور صورة تحاكي الطبيعة وها هي صورة الاوز البديعة بالمتحف المصري شاهد عدل على ذلك . وهم أول من ضرب بيده على آلة طرب وها هو نايهم ومزمارهم ومزهرهم ورقهم شاهد عدل على ذلك . وهم اول من اشتغل على النول وهاهي منسوجاتهم شاهد عدل على ذلك. وهم اول من قرأ ومن كتب ومن أنشأ وها هي رسائلهم وقصائدهم البليغة شاهد عدل على ذلك . . الخ الخ فهل المدنية الحديثة مستقلة بذاتها أم اكتسبت كل شيء من مدنية أجدادنا القدماء ؟

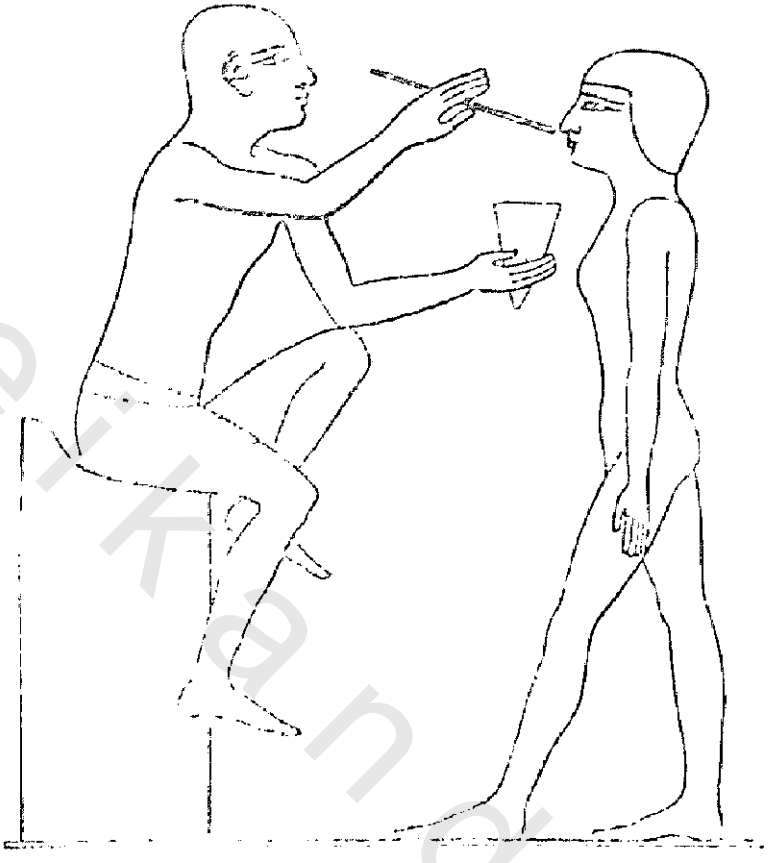

﴿ مصور يلون تمثالاً ﴾

ولمحة الآن في التربية والتعليم والادب عند هم ترينا مبلغ رقيهم الادبي كانت الكلمة التي قالها الحكيم المصري الكبير دؤوف بن خرئي لابنه بي عند ما الحقه بمدرسة العلوم والآداب بالقصر الملكي هي « يابني استسلم للتعليم وتمسك به كما تمسك بوالدتك . لاشيء في الوجود ثمين كالعلم »

وهذه العبارة التي يستدل منها على عناية المصريين بامر التعليم مثال بسيط لما نجده في آدابهم وتعاليمهم من عبارات الحث على الدرس والتعليم التي لا يمكننا سردها في هذا المقام

وقد بين لنا دؤوف المذكور سبب عناية المصريين القدماء بأمر التعليم ببيتين من الشعر كانا ذائعين على السنة الكتاب في العصور الخوالي هذا مغزاهما :

« كل صاحب مهنة مرؤوس
الا العالم فانه رئيس نفسه »

وكان المصريون يجلون المتعلمين فلا يتقلدون مناصب الحكومة الكبرى الا لاهل العلم . وبالعلم وحده كان الانسان يترقى من الطبقة السفلى الى الطبقتين الوسطى والعليا ويريح نفسه من مشاق الاعمال التي يقوم أرباب الحرف والصنائع بتأديتها . وكانوا يقولون في الامثال « الفقير الجاهل المجهول الاسم كالحمار المثقل ظهره بالاحمال يسوقه الكاتب بعصاه أما الرجل السعيد العاكف على الدرس والمطالعة فلا يثقل ظهره بالاحمال ويقدر أن يكون أميراً عظيما » . ولذلك كانوا ينصحون الاولاد دائما بقولهم « اشتغلوا وتعلموا لتصيروا قادة للناس واعلموا ان الكتابة مهنة شريفة وأدوات الكاتب وكتبه تجلب له السعادة والغنى »

وكان الكاتب لا يخشى الفاقة أبداً لانه ينال ما يحتاج اليه من الخزينة الملوكية وفي ذلك قال المصريون القدماء أنفسهم « للعالم من الغذاء ما يكفيه بالنسبة الى عمله وأدبه . والكاتب الذي يتيقظ لاشغاله ويعمل على الدرس يصير أميراً أو يلحق بالمحكمة العليا أو يرتقي الى القصر الملكي ليؤدي مهام الحكومة السياسية والادارية فعليه اذن أن لا يهمل الدرس لئلا ترذله الاهة السعادة والغنى »

﴿الكاتب المصري قاعد القرفصاء﴾
بالمتحف المصري

ولهذا السبب كان العاقل منهم يتوسل دائماً لتوت اله الكتابة والحكمة بان يمنحه فهماً وقوة ونشاطاً لانه عندهم كاتب الوحي ولا ينسى زملاءه اذا استنجدوه أو خاطبوه بقولهم « تعال الي وارشدني واجعلني أسير في سراطك المستقيم . ان صناعتك احسن الصنائع. تعال وارشدني .أناخادم

في بيتك . دع الناس كلهم ينظروا بمجدك ويقولوا : خيراً فعل توت. دعهم ياتوا باولادهم ليتعلموا ويصيروا كتبة . صناعتك جميلة وانت شجاع اريحي تجير من يحتمي بك . صناعتك تسر صدور المشتغلين بها »

وكان الولد المراد تعليمه العلوم والآداب يرسل وهو صغير الى بيت التعليم أي المدرسة حيث يتعلم مع أولاد الامراء ويتمرن على هذه الصناعة الشريفة

وكانت المدارس في الطبقة القديمة من ملحقات القصر الملكي ثم الحقت باعمال الحكومه في عهد الطبقه الحديثة

وقد علمنا من الآثار القديمة ان الاساتذة كانوا ينتخبون من ارباب المناصب العليا في المملكة وان التلامذة كانوا يحترمونهم كل الاحترام وقد كتب أحد التلامذة مرة الى استاذه كتابا عثرنا عليه في مجموعة ادراج بردية ثمينة قال فيه « كنت معك منذ صباي وكنت تضربني على ظهري بالسوط وقد انطبعت ارشاداتك في ذهني » .والظاهر أن الطالب كان يتردد في اثناء توظفه على المعاهد العلمية الكبرى لدرس العلوم العالية ولا يمنع من الاشتغال بوظيفة غير التي رشح نفسه لها وهو في المدرسة . وقد جاء في بعض القراطيس أن رئيس كهنة امون الحق في الخامسة من عمره بالاسطبل الملكي أي مدرسة الفروسة وبقي فيه الى السادسة عشرة من عمره ثم الحق بمعبد امون — والفرق بين الوظيفتين واضح كالشمس

وكان قانون المدرسة صارماً فلا يؤذن للتلميذ في ان ينام الا ساعات قليلة في الليل وكان الاستاذ يطوف على الطلبة وينبههم قائلاً « قم ايها الكسلان

ان زملاءك قد فتحوا الكتب فالبس ملابسك واشدد نعالك »

وكان التلاميذ يلازمون المدرسة من الصباح الى الظهر فقط ثم ينصرفون فرحين لتناول الغذاء الذي تحضره اليهم امهاتهم في سلال صغيرة مع اقداح من الجعة . وكان التلاميذ يضربون بالسياط واساس التعليم عندهم هذه العبارة « للتلميذ اذن في ظهره فيلتفت عندما يضرب عليها »

وكان الاساتذة يقولون لتبرير هذا العمل « انه لما كان في الامكان تربية الحيوانات بالضرب فكذلك يربى الاولاد به »

ومن اقوالهم الحكمية المشهورة « لا تك ايها الكاتب كسلاناً فيستحثك الضرب . لا تصرف وقتك في التمني والا كانت عاقبتك من اوخم العواقب . اقرأ الكتاب الذي في يدك وانتصح ممن هم اعلم منك . تأهب لتصير أميراً عندما تكبر . ما أسعد الكاتب المتمرن على عمله . لا تضع يوماً من أيامك في اللهو واللعب والا جلدت لان آذان الصغار في ظهورهم ولا يسمعون الاّ اذا جلدوا . التفت الى ما أقول لأن التفاتك يعود عليك بالسعادة والهناء »

ولما يتقن التلميذ الكتابة يعطيه المعلم قطعاً أدبية ليكتبها فيتمرن على اسلوب الكاتب في كتابته . واحياناً يعطيه قصة او قصيدة لينسخها و بذلك كان يتعلم التلميذ الانشاء

وقد عثرنا على كراريس بعض التلاميذ وهي غريبة في شكلها طويلة العرض قصيرة الطول قليلة السطور طويلتها وفيها هوامش وتواريخ وتصحيحات بخطوط الاساتذة وكانوا يكتبون المذكرات المهمه على ظهر الورق

هذه هي طريقة التعليم الابتدائي في مدارس المصريين القدماء

ولما كان التلميذ يتقن هذه المبادىء الاولية كان يلقن علوم الحساب والتاريخ والجغرافيه والهندسة والفلك والسحر ولكن مع نبوغهم في هذه العلوم فقد كان لهم ميل خاص للشعر والادب حتي اننا نجد الآن لهم قصائد وقطعاً منثورة من ابلغ ماسطره كاتب او شاعر في الوجـرد فلا تقـل لي هوميروس ولا دانتي ولا فرجيل ولاهوجو ولا ديموسيه ولاشاكسبير.

فمن قول شعرائهم في الغرام

أيها الشاب الجميل
ان مرامي أن اتزوج بك
وتضع ذراعك في ذراعي
ان لم يأت حبيبي وأخي في هذه الليلة
أمسى الليلة كالنائم في القبر
لأنه عندي صحة ونور

***

ومن قولهم ايضا

قبلات الحبيبة تأتيني (محمولة على اجنحة النسيم)
من شاطىء النهر المقابل لي
النيل يجري بيني وبينه
هناك تمساح يزحف في الرمل
اغطس في المياه وأتوسط اللجة
قوتي عظيمة في المياه

الامواج تحت قدمي كالاحجار الصماء
حبها يقويني
لقد وهبت الي تعويذه اتقي بها شر الغرق

***

ومن قولهم ايضا
عندما اقبلها في فيها
استغني عن الخمر المنعشة
عند ما يأتي وقت النوم
ضع ايها الخادم الامين كتاناً رفيعاً بين ساقيها
وحضر لها فراشاً من الكتان الملوكي
الابيض الناعم المرشوش باحسن انواع الزيت

***

ومن قولهم ايضا
ياليتني كنت جاريتها
لأسير وراءها
فاتمتع برؤية ساقيها

***

ومن قولهم ايضاً
سأذهب الى فراشي حزيناً مريضا بداء الغرام
لقد أتى الجيران ليعودوني

هاهي الحبيبه مقبلة نحوي
وهاهي تؤنب الاطباء
لأنها الوحيدة التي تعرف دوائي

***

ومن قولهم ايضاً
أنا اختك الحبيبة
وأنت عندي كالحديقة
التي زرعتها بأنواع الزهر والاعشاب العطرية
أوجدت فيها غدير مياه باردة لتضع فيه يدك عندما تهب ريح الشمال الباردة
ان المكان الذي نتنزه فيه جميل
لاننا نمشي فيه معاً
ويدك في يدي وقلبانا يرقصان طرباً
يلذ لي سماع صوتك الشجي
الموقوفة على سماعه حياتي
ان رؤياك عندي خير لي من الغذاء والشراب .. الخ الخ

هذه هي بعض اقوالهم في الغرام وهي قريبة كما يرى من اقوال اشعر شعراء العصر ! بل من ذا الذي ينبئنا بأن هوميروس اليوناني وشاكسبير الانجليزي وديموسيه الفرنساوي لم ينقلوا عنها ؟

*
* *

هذا ومن قولهم في التهنئة قول قاجار مهنئاً الملك سيتي الثاني بارتقائه على العرش :

ارعني سمعك أيتها الشمس المشرقة
التي تنيرين الكون بسنائك وبهائك
يا نور البشر الطاردة جيوش الظلام من مصر
شكلك كشكل أبيك رع وهو صاعد الى الافق
اشعتك تصل الى أبعد الاقاليم وانت مقيمة في مكانك
انك تسمعين كل ما يقال في الاقاليم والبلدان
لان لك ملايين من الآذان
عينك أجمل من نجوم السماء الزاهرات
وترين ما وراء الشمس
اذا تكلمتُ في السر فاذنك تسمعني
واذا عملتُ في السر عملاً خفياً فعينك تراه .. الخ الخ

* * *

ومن قولهم في الرثاء على لسان ايزيس ونفتيس

ايه يا حبيب أبيك
وبا ملك المسرات
اسمع
انا زوجتك
انا الاخت التي تحمي أخاها

تعال الي لانظر اليك
تعال الي تعال يا حبيب فؤادي
تعال يا حبيبي تعال
انا زوجتك التي تحبك
ان قلبي يخفق من أجلك
وذراعاي الفهما حولك
انني لا اتركك لترحل عني
قلبي حزين لاني
لا أراك ولا أرى جمالك . . الخ

* * *

ومن قولهم في التسبيح قول اخناتون الملك
ان طلوع الفجر جميل في أفق السماء
اتون يا حي ويا قديم
عند ما تظهر في أفق السماء من جهة الشرق
تملأ بنورك الفضاء
لانك جميل وعظيم ومنير على الارض
أشعتك تنير الكون وكل ما صنعته يداك
انت رع . لقد اسرت افئدة الجميع
وربطتهم برباط الحب
وان كنت بعيداً فان أشعتك تملأ الارض

obeikandl.com

وان كنت عاليا فان آثار أقدامك النهار

* * *

ومن أقوال كتابهم الحكماء قول الحكيم قاقمنه

أيها الصامت تكلم ولا تعظم نفسك بما لك من القوة والسلطان على الرئيس ان ينصح اولاده متي اراد ان يتم ما توجبه الانسانية كي يسلكوا في الامور كما يقال لهم

اذا سمع المسطر في هذا الكتاب كما قلته وقصد به المنفعة وحفظه الناس أفادهم في هذه الدنيا أكثر من كل شيء . الخ

* * *

هذا خلاف القصص والروايات اللطيفة التي تضارع في رقتها ومتانة اسلوبها قصص وروايات اكبر المنشئين في هذا العصر

* * *

ومن هذا يستدل ان اللغة المصرية القديمة غنية جداً بالآداب كأية لغة من اللغات الحديثه في هذا العصر . فضلاً عن ان المصريين هم اول من كتب بدليل قولهم في الآثار ان تحوت هو الذي علمهم الكتابة . كما انهم أول من اختزل الكتابة بطريقة الاختزال المعروفة بدليل الاختزال الذي نراه في الخط الهيراطيقي

ولي رأي اختم به هذا الموضوع وهو انهم اول من اخترع الكتابة الخاصة بالصم والبكم والعميان وذلك لأنهم اول من كتب بالاشارات التصويرية وبالحروف الغائرة والبارزة .

والآن ننتقل الى موضوع المعيشة المنزلية وهو كما يعلم الجميع من أهم المواضيع المكونة لأساس التمدن .

ان الناظر الى المعيشه المصرية القديمة يجدها لا تختلف كثيراً عن معيشة أرقى الناس تمدنا في هذا العصر فان المنزل كان يحتوي على الخدم والحشم وكنت تراه مفروشاً باجمل الرياش واثمن الاثاث من مقاعد ومساند وموائد واسرة وأبسطة وما شاكلها وكان المنزل مقسما الى قسمين قسم للحرم وقسم للرجال ويتبع الثاني قسم الخدم والمواشي المنزلية والاسطبلات وغيرها من لوازم المنزل . وكانوا متنعمين جداً بمعيشتهم حتى انهم كانوا يجتمعون في منازل بعضهم ويحيون الليالي الطويلة بالسمر وكانت النساء تجتمع بالرجال في الحفلات الليلية ويقضون لياليهم في سماع الاغاني والاناشيد اللذيذة المنعشة ومشاهدة الرقص والشراب الذي لهم فيه أقوال كثيرة مأثورة تضارع أقوال أبي نواس ومن شاكله من الشعراء .

وكانت النساء في تلك الليالي تلبس أفخر ما عندها من الملابس وتتزين بأثمن المصوغات مثل الاقراط والدبابيس والدمالج والخواتم والتيجان الغالية ويستعملن كذلك الادهان والاصباغ البيضاء والحمراء للوجه والسوداء للاهداب والحواجب وكن يضعن على رؤوسهن عمارات مخصوصة ويتعطرن بأنواع العطر المجلوبة من السودان وبلاد العرب ويتهادين مع بعضهن بالازهار الجميلة التي كانت تنبت على ضفاف النيل وفي حدائق مصر الغناء وبالجملة كانت سهرات المصريين لا تختلف في شيء عن سهرات الطبقة الراقية في العصر الحديث

وكانوا يتسلون في أوقات الفراغ وفي أيام الحر بالقنص والصيد وركوب الذهبيات ولعب النرد والمصارعة وما شاكلها من الالعاب الجميلة. اما الملابس فكانت لا تختلف كثيراً عن ملابس العصر الحالي من حيث الزركشة والجمال فضلاً عن انهم كانوا يلبسون ملابس مخصوصة في الاحتفالات الرسمية والمواسم والاعياد

هذه كلمة اجمالية عن المعيشة والآن ننتقل الى موضوع اعده من اجل المواضيع وأهمها وهو موضوع المرأة .

فالمرأة !من هي المرأة الآن ؟ ملكة · ربة بيت · شريكة زوجها . ام اولادها . وماذا كانت عند المصريين القدماء ؟ الم تكن ملكة ؟ ماذا كانت نيتوكريس او ماذا كانت حاتاسو ؟ الم تكن الاهة معبودة ؟ ماذا كانت ماعت وتفتيس او ماذا كانت هاتور وايزيس

الم تكن خادمة للمعبودات وكاهنة لهياكلها ؟ ومن ذا الذي كان يخدم المعبودات في هياكل ايزيس ونت وهاتور وبست ؟ الم تكن هي وزوجها روحاً واحدة في جسمين ؟ ماذا نراها في الصور والتماثيل الآن

أجل لا تختلف المرأة المصرية القديمة عن الحديثة المتمدنة في شيء اصلاً بل اذا افتخرت الباريسية الحسناء الآن بالتطرف في الحرية فأن المرأة المصرية القديمة تفتخر بأنها ربة بيتها وام اولادها وزهرة مصر كلها

لقد كنت اظن قبل الآن ان المرأة المصرية هي كسكثير من نساء الشرق في العصر الحالي واقفة نفسها لخدمة الرجال

ولكن عند ما وقع نظري على تمثالي الاميرة حتب والاميرة نيفرت

وصورة ماي فتاح كاهن الاله فتاح مع عائلته وما يماثلها من الصور الموجودة بكثرة في صعيد مصر والمتحف المصري ايقنت اني كنت مخطئاً . عرفت ان المرأة المصرية كانت متمتعة بكامل الحرية ولكن مع المحافظة على الادب والكمال ! وماذا نقول عند ما نرى في حكم ونصائح فتاح هذا النص : « حكيم من يؤسس لنفسه بيتاً ويحب زوجته » وماذا نقول أيضاً اذا اطلعنا على قرطاس بردي مشهور بالمتحف الملكي ببليدن ؟

أما موضوع هذا القرطاس فهو ان رجلاً توفيت زوجته واسمها عنخيري ومن فرط حبه لها وشدة لوعته عليها أصيب بداء شديد فاستشار منجماً فافهمه بان زوجته هي السبب في علته فما كان من المسكين الا ان كتب الى « روح زوجته العاقلة » جواب استعطاف ووضعه في قبرها . اما نص هذا الخطاب فكما يأتي :

ماذا الحقت بك من الضرر حتى أراني الآن في هذا الحال ؟ ماذا فعلت معك من الشر حتى تضريني الآن ؟ من وقت زواجنا لهذه الساعة هل فعلت شيئاً يستحق ان اكتبه عنك ؟ . . . تزوجتك في أيام شبابي ولم أترك جانبك . عينت في جملة وظائف مهمة وكنت دائماً معك لا أفارقك . لم أتركك قط ولم أحزن فؤادك . لما قلدت رئاسة جيش فرعون وحرسه احضرتك الى المعسكر ليجثو لديك جميع المرؤوسين . جثوا واحضروا لك الهدايا الثمينة . ولما اصبت بالداء الذي أودى بغصن شبابك النضير قصدت رأس الاطباء وسألته أن يصف لك دواء ففعل واحضرته اليك . ولما رافقت فرعون الى الجنوب كان فكري دائماً مشغولاً بك وأمضيت

الثمانية أشهر غير مهتم بغذاء ولا شراب ولما عدت الى منفيس تركت فرعون وأتيت الى داري لابكي عليك مع جميع الاتباع والاعوان ....الخ»

هذا هو مركز المرأة عند المصريين القدماء وهذه مكانتها عندهم .

هذا فضلاً عن انهم كانوا يشبهون المرأة الساقطة بالافعي ويحذرون بعضهم البعض من الاقتراب منها وقد قالوا فيها عبارات لا تقل في شدتها عن اقوال سليمان الحكيم في امثاله المشهورة كما انهم كانوا يحثون العزاب دائما على الزواج لتكوين العائلة. هذه هي المرأة عند أجدادنا القدماء

والآن ننتقل الى موضوع القوانين والشرائع. لقد دلنا البحث على ان طريقة التحقيق عندهم قريبة جداً من طريقة التحقيق عندنا لآن

وكان قضاتهم من العلماء ومركزهم فوق القوانين وكانت مرتباتهم كلها تصرف لهم من الخزينة الملكية ولهذا السبب كنت تراهم لا يحكمون الا بالعدل حتى على أقرب الناس اليهم. ومن جملة قوانينهم ما يأتي :

قطع يدي ضارب النقود المزيفة واعدام الحالف بالزور في المحاكم والقاتل عمداً ومن يترك انساناً مشرفاً على الهلاك ولا يغيثه اذا كان في امكانه اغاثته وجلد من يكتم عن الحكومة جناية وقعت امامه . وبما يحكم على المدعى عليه اذا ظهر تزوير المدعي وفضيحة الجندي الفار. وجلد من يأتي النساء غصباً وقطع انف الزانية وجلد الزاني وسل لسان من يطلع العدو على عورات الوطن وقطع يمين مطفف الكيل والميزان ومزور الخطوط ومقلد الاختام وحرق قاتل احد ابويه عمداً حياً .

هذا بخلاف قوانينهم التجارية المناسبة لروح ذلك العصر وهي قريبة

جداً من قوانين الحكومات المتمدنة في العصر الحالي

والظاهر انهم اول من صرحوا للمدعى عليه بتقديم مذكرات كتابية للمحكمة لتنويرها واول من صرح للمدعى عليه بالمرافعة امام هيئة المحكمة

وكان قضاتهم يفوضون الحكم دائماً للملك ليطمئن الناس من جهة ذمة القضاة الذين يحكمون عليهم

والآن اختم موضوعي بأن ظواهر المدنية القديمة هي نفسها ظواهر المدنية الحديثة ولا ينقص الاولى غير البخار والكهرباء ولو كنت متعصباً للمصريين القدماء لقلت أنهم مخترعو البخار والكهرباء ولكن حاشا لله ان اقول شيئاً من ذلك طالما لا يوجد دليل محسوس على صحتها ومع هذا فاني اترك المسألة للمستقبل وربما كشفت لنا الاطلال الدارسة اشياء كثيرة لا يزال علماء الآثار يجهلونها

بقي علي أن أقول كلمة للقائل بان المدنية اليونانية لها الفضل الاكبر على المدنية الحديثة وهي ان كان لليونانيين فضل فمصر الاساس وهم البناء بدليل قول الكهنة المصريين لفلاسفة اليونان عندما زاروهم « أنتم أيها اليونانيون صبيان كثيرو الكلام بدون جدوى » وقول العلامة يوحنا دريبر « من المصريين أخذ اليونانيون أساليب البناء وصناعة الاواني وكثيراً من القصص التي نظم هوميروس عليها قصائده وبعض المعتقدات الدينية كمحاكمة الموتى وغيرها » وقول بونسن « ان مصر كانت في نظر اليونانيين عبارة عن تمثال لابي الهول برأس انسان عاقل » أي عبارة عن أنموذج ينقلون عنه .

واختم قولي بانه ليس من الحكمة أن يفتخر الانسان باعمال أجداده وانما الحكمة في أن يعمل عملهم والسلام

انتهى